# أدب الرواد المسلمين

*فن فى الأدب العربى يحتفظ بقيمته وجدته*

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فن من فنون الأدب العربى لم تذهب الأيام بجدته ؛ ولا يزال تراثه رغم كر الزمن يحتفظ بقيمته الفنية فضلاً عن قيمته التاريخية ؛ ذلك هو فن السياحة والمشاهدة . ففى الأدب الغربى ، القديم والحديث ، تتبوأ كتب السياحة والمشاهدة مكانة رفيعة ، سواء أكانت لمكتشف يرود مجاهل القارات ثم يسجل اكتشافاته ، أو لكاتب يجوب البلاد بقصد الدرس والمشاهدة ويدون ملاحظاته ومشاعره . وقد كانت كتب السياحة قبل قرنين أو ثلاثة تعتبر دائماً بالنسبة للمجتمعات التى كتبت لها كتب استكشاف تلقى أضواء جديدة على أحوال المجتمعات التى كتبت عنها ؛ فلما تقدمت المواصلات وتقاربت الشعوب ، وكثر تعارفها ، وتوثقت بينها الصلات العلمية والأدبية ، لم يبق للسائح

---

ياهذا عليك أخاك أحمد ولتكن به حَفِيًّا ، وياهذه ، عليك أختك الآنسة أمينة . . . .

أتأبيان ، أَنَفْرَةً من الانسانية ، وتمرداً على الفضيلة ، أحقاً بلا واجب ، دائماً قانون الكلمة الواحدة ! ؟ خلقتما أبيضين سخرية من القدر وأنتما فى النفس من أحبوشة الزنج ومناكيد العبيد .

ورفع أحمد يده . . . .

وكان الشرطى الذى يقوم على هذا الشارع ، واليه حراسة البنك قد توسنهما [1] ودخلته الريبة ، فانتهى إليهما فى تلك اللحظة وقبل أن تنزل يد سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنت الباشا كان هذا الشرطى قد ركله برجله فوثب قائماً واجتذب أخته وانطلقا عَدْوَ الخيل من ألهوبِ السوط .

. . . . . .

وتمجدت الفضيلة كعادتها . . ! . . أن مسكيناً حلم بها . .

**مصطفى صادق الرافعى**

---

(١) توسنهما أتاهما نائمين

التجول ما يكتشفه من أحوال الشعوب المتمدنة أو التى تأخذ بقسط من الحضارة ، إلا ما يمليه عليه الدرس الخاص لأحوال هذه الشعوب ، وأصبحت كتب الاستكشاف وقفاً على رواد المجاهل والعلماء الذين يجوبون معهم مجاهل البحار أو اليابسة ليكشفوا جديداً من الآثار أو الأنواع . وكتب الفريق الأول يغلب عليها الطابع الأدبى ، وأما كتب الرواد الفنيين فيغلب عليها الطابع العلمى .

وقد عرف الأدب العربى فن السياحة والمشاهدة فى عصر مبكر جداً . فمنذ القرن الثالث نرى الجغرافيين العرب يطوفون أرجاء العالم المعروف يومئذ للوقوف على أحوال البلدان والأقاليم المختلفة وخواصها ويدونون مشاهداتهم فى كتب لا زالت حجة عصرها . ومن أعظم هؤلاء الجغرافيين الرحل ، اليعقوبى الذى طاف العالم الأسلامى من السند الى الأندلس وتجول فى جميع بلاد فارس والجزيرة ومصر والمغرب والأندلس فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ، ووضع كتابه الجامع « البلدان » ، والمسعودى المؤرخ والجغرافى الذى طاف أنحاء العالم الأسلامى شرقاً حتى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ، واخترق المحيط الهندى حتى شواطئ افريقية الشرقية وجزيرة مدغشقر ، وشهد عجائب هذه الآفاق ، ودونها فى كتبه ولا سيما مروج الذهب والتنبيه والاشراف ، وذلك فى أوائل القرن الرابع الهجرى . بيد أننا لا نريد أن نتحدث هنا عن هؤلاء العلماء الجغرافيين ، وإنما نتحدث بالأخص عن طائفة من الرحل والمكتشفين المسلمين الذين تصور آثارهم أحوال البلاد والمجتمعات التى شهدوها ، وتعتبر من الوجهة الفنية آثاراً وصفية اجتماعية قبل أن تعتبر آثاراً جغرافية . ولدينا فى الواقع ثبت حافل من أولئك الرواد المشغوفين بالسياحة ودراسة أحوال الأمم ، ولدينا كثير من آثارهم الى ما زالت تعتبر رغم قدمها نماذج حسنة لهذا النوع من الأدب المفيد الشائق معاً . وما نذكره منهم ومن آثارهم فى هذا الفصل ، نذكره على سبيل التمثيل ، لا على سبيل الحصر ؛ وإنما نلاحظ أن الذين عرفوا منهم وعرفت آثارهم هم أقلية صغيرة بالنسبة الى أولئك الذين لم تصل الينا آثارهم أو التى انتهت آثارهم إلينا ، ولكنها ما زالت مخطوطات منسية فى ظلمات المكاتب العامة والخاصة .

ومن أقدم أولئك الرواد الوصفيين الذين انتهت آثارهم إلينا

أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الذى أنفق نحو ثلاثين عاماً فى الطواف بالأمم الاسلامية من بغداد إلى الأندلس ، يدرس أحوالها وخواصها وأحوال شعوبها ومجتمعاتها ، وذلك فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) . وقد دون ابن حوقل رحلته ومشاهداته فى كتاب أسماه «المسالك والممالك» ، وهو أثر يجمع بين الناحية الجغرافية والناحية الوصفية . بيد أنه يعنى بالمشاهدات الوصفية عناية خاصة ، وفيه يدون ابن حوقل خلال أخبار رحلته أحوال الأمم التى مرّ بها وما شاهده فيها من المناظر والمعاهد والآثار والخواص التى تستحق الذكر . وقد مرّ ابن حوقل أثناء رحلته بمصر ، فى أواخر الدولة الاخشيدية ، وخصص لمشاهداته فيها فصلاً طويلاً يصف فيه مصر الفسطاط ومعاهدها والنيل ومجراه ، وكثيراً من أحوال المجتمع المصرى يومئذ[1] . وأسلوبه يجمع بين الطابعين العلمى والأدبى . ولدينا فى القرن السادس رحالتان شهيران أحدهما يجوب العالم المعروف يومئذ من المشرق الى المغرب ، والآخر يجوبه من المغرب إلى المشرق ، والأول هو أبو الحسن على بن أبى بكر المعروف بالسائح الهروى ، نسبة الى هراة بلد أسرته . وقد ولع أبو الحسن بالأسفار منذ حداثته ، وخرج من الموصل مسقط رأسه يجوب أنحاء العالم لغير قصد سوى التفرج والاستكشاف ، وذلك نحو سنة ٥٦٨ هـ ( ١١٧٣ م ) ، وأنفق زهاء ربع قرن فى رحلته ، فطاف أرجاء الشأم وفلسطين ومصر ، وقبرص وغرب الأناضول وزار قسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، واخترق البحر الأبيض وتجول فى جزائره حتى صقلية ؛ ولم يترك ، على قول ابن خلكان « براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل الى موضع إلا كتب خطه فى حائطه » . واشتهر ذلك فى الآفاق كلها ، وهو الوحيد الذى تلقبه الرواية الاسلامية « بالسائح » وأسره الفرنج والقرصان مراراً ، وضاعت كتبه ومذكراته ، كما يخبرنا بذلك فى كتابه الذى انتهى إلينا ، وهو سفر صغير عنوانه « الأشارات إلى معرفة الزيارات »[2] وفيه يقص باختصار سير رحلته ، وما شاهده من الأماكن والمعاهد ، دون وصف ولا إسهاب . وفى أواخر القرن السادس استقر أبو الحسن فى حلب بعد طول التجوال ، ونال حظوة لدى أميرها وتوفى سنة ٦١١ هـ ( ١٢١٤ م ) ودفن بتربة أعدها لنفسه ، وكتب عليها حسب وصيته ومن انشائه تلك الكلمات المؤثرة : «هذه تربة العبد الغريب الوحيد على بن أبى بكر الهروى ، عاش غريباً ، ومات وحيداً ، لا صديقاً يرثيه ، ولا خليلاً يبكيه ، ولا أهل يزورونه ، ولا اخوان يقصدونه ، ولا ولد يطلبه ، ولا زوجة تندبه ؛ آنس الله وحدته ، ورحم غربته »

وأما الثانى فهو أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير الأندلسى . رحل من الأندلس شرقاً الى افريقية ومصر والشأم والحجاز . وكان رحالة بطبيعته قوى الملاحظة والوصف . رحل من غرناطة الى المشرق ثلاث مرات ، الأولى سنة ٥٧٨ هـ والثانية سنة ٥٨٥ هـ ، والثالثة فى أواخر القرن السادس ، وقطع البحر الأبيض مراراً ، وطاف بمعظم جزائره وثغوره الجنوبية والشرقية ، وتجول فى بلاد مصر والشأم والحجاز ، وقاسى فى أثناء تجواله كثيراً من الشدائد ، وأشرف مراراً على الهلاك فى البحر ، واستقر أخيراً بالاسكندرية وتوفى بها سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ودون أخبار رحلاته فى سفر كبير ممتع يسميه « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » . وفيه يدون مشاهداته فى الأمم والبلاد التى زارها ؛ ويقص حوادث أسفاره مفصلة بالتواريخ فى نوع من « المذكرات » ؛ وهو أثر شائق الأسلوب والوصف يعتبر نموذجاً بديعاً لأدب الرواد .

ونستطيع أن نذكر من الرواد المسلمين فى هذا العصر أيضا ، عبد اللطيف البغدادى الطبيب العلامة الذى وفد على مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وطاف بعد ذلك فلسطين والشأم وبلاد الروم الأناضول يدرس أحوالها ومجتمعاتها . وقد دون عبد اللطيف مشاهداته فى مصر فى كتاب كبير لم يصل إلينا ، ولكن وصلت الينا منه عدة فصول اختارها عبد اللطيف وسماها كتاب « الافادة والاعتبار » وهى فصول قوية بديعة عن أحوال مصر وخواصها الطبيعية والاجتماعية ، يغلب عليها الأسلوب العلمى الذى يمتاز به مؤلفها

* * *

على أن أعظم الرواد المسلمين على الأطلاق هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الطنجى الشهير بابن بطوطة . ولم يكن ابن بطوطة

---

(١) راجع هذا الفصل فى كتاب « المسالك والممالك » ( وهو ضمن المكتبة الجغرافية التى أصدرها المستشرق دى جويه )

(٢) ومنه نسخة خطية فى دار الكتب رقم ( ٣ م جغرافيا )

رحالة عظيما فقط يجوب أنحاء العالم المعروف يومئذ ، بل كان أيضاً مكتشفاً عظيما يقصد الى مجاهل البر والبحر . وكتابه « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وهو المعروف برحلة ابن بطوطة أجمل وأنفس أثر عربى فى هذا النوع من الأدب . وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه فى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥م) يجوب أقطار العالم ، واخترق بلاد المغرب ومصر والشأم وبلاد العرب وبلاد الروم وقسطنطينية ، وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية ؛ واخترق فى عوده قلب أفريقية من السودان الى بلاد النيجر ؛ ووقف على كثير من مجاهل بعض الأقطار والأمم التى لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة ؛ ووصل الى أعالى نهر النيجر والى تمبكتو وسكوتو قبل أن يصل اليها الرواد الأوربيون ويكتشفها الرحالة الانجليزى منجوبارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون . وسلخ فى رحلاته نحو ربع قرن ؛ وترك لنا عن أسفاره واكتشافاته ومشاهداته ذلك الأثر الذى يعتبر بحق من أبدع آثار السياحة والاكتشاف .

وقد لبث أدب الرواد متصلاً فى العربية حتى العصر الحديث ؛ فنجد المقرى مؤرخ الأندلس — مثلاً — يصف لنا فى فاتحة « نفح الطيب » رحلته البحرية من المغرب الى المشرق فى أسلوب رائع ؛ ونجد العلامة الصوفى عبد الغنى النابلسى يجوب بلاد الشام ومصر والحجاز ، وذلك سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٤م) ، ويترك لنا عن أسفاره ومشاهداته أثراً نفيساً هو كتاب « الحقيقة والمجاز » الذى تحتفظ دار الكتب بنسخة خطية منه

* * *

ومما تقدم نرى أن أدب السياحة قد بدأ فى العربية فى عصر مبكر ، واستمر على كر العصور . وكثيراً ما قيل إن تراث الأدب العربى أضحى قديماً لا يساير العصر ، وأن فنونه قد عفت ، وأنه ليس فى تعداد فنونه ومناحيه كالأدب الغربى . ولكننا نستطيع أن نقول هنا على الأقل ، إن الأدب العربى قد سبق الأدب الغربى فى فن السياحة والمشاهدة بعصور طويلة ؛ وهذا مترتب بالطبع على أن الرواد المسلمين كانوا أسبق من الرواد الغربيين الى التجوال فى أنحاء العالم المعروف يومئذ ، والى ارتياد كثير من الأنحاء المجهولة . والواقع أن أول رحالة غربى كبير ارتاد انحاء المشرق وآسيا هو الرحالة الايطالى مركو بولو ؛ وكانت رحلته الى المشرق فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ؛ هذا بينما يرجع نشاط الرواد المسلمين الى القرنين الثانى والثالث من الهجرة (القرنين الثامن والتاسع من الميلاد) . وأقدم أثر غربى قيم فى السياحة هو أثر مركو بولو الذى يصف فيه أحوال الأقطار الأسيوية ولاسيما الشرق الأقصى . وقد كان أول أثر استطاع الغرب أن يقف فيه على عظمة الشرق يومئــذ وبذخه وبهائه وروعة حضارته . ولكن الأمم الاسلامية كانت تعرف أقصى الأمم الشرقية ومعظم الأمم الغربية على يد جغرافييها وروادها قبل ذلك بقرون .

على أنه مما يؤسف له أن أدب السياحة فى العربية قد انحط فى العصر الأخير ، كما انحط كثير من فنونها ، وأضحى نوعاً من المشاهدات الطائرة تكرر فى كل فرصة وفى كل أثر جديد ، وتكتب بالأسلوب الصحفى الركيك ، وتقف عنــد الأخبار والمشاهدات السطحية ، كوصف السفينة والبحر والشوارع والفنادق والملاهى ، بأساليب وعبارات مملة ؛ وقلما يعنى السائح المتفرج بالمشاهدات والدراسات العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، ومن الأسف أننا لا نستطيع أن نجد بين كتب السياحة التى أخرجت فى العصر الأخير كثيراً من الآثار التى تمتاز بقيمتها الأدبية والفنية [1] .

**محمد عبد الله عنان**
المحامى

---

(١) يسرنى أن أنوه بهذه المناسبة بالكتب القيمة التى يخرجها صديقنا الرحالة محمد ثابت عن رحلاته ، وقد أخرج منها إلى اليوم ثلاثة تمتاز بدقة دراساتها ومشاهداتها الجغرافية والاجتماعية .

---


## الرسالة فى شهور الصيف

تسهيلاً لوصول الرسالة الى قرائها مدة العطلة تقبل الادارة الاشتراك الشهرى بواقع أربعة قروش عن كل أربعة أعداد تدفع مقدماً